غرفة الأحزان

مصطفى لطفي المنفلوطي

كَانَ لِيْ صَدِيْقٌ أُحِبُّهُ ، لِفَضْلِهِ وَأَدَبِهِ ، أَكْثَرَ مِمَّا أُحِبُّهُ لِصَلاحِهِ وَدِينِهِ ، فَكَانَ يَرُوْقُنِيْ مَنْظَرُهُ ، وَيُؤْنِسُنِيْ مَحْضَرُهُ ، وَلا أُبَالِيْ بَعْدَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ مَنْ نُسْكِهِ وَعِبَادَتِهِ ، أَوْ فُسْقِهِ وَاسْتِهْتَارِهِ ، لأَنَّنِيْ مَا فَكَّرْتُ قَطُّ أَنْ أَتَلَقَّى عَنْهُ عُلُومَ الشَّرِيْعَةِ أَوْ دُرُوْسَ الأَخْلاقِ.

قَضَيْتُ فِي صُحْبَتِهِ وَقْتاً طَوِيلاً مَا أُنْكِرُ مِنْ أَمْرِهِ ، وَلا يُنْكِرُ مِنْ أَمْرِي شَيْئاً ، حَتَّى سَافَرْتُ مِنَ القَاهِرَةِ سَفَراً طَوِيلاً ، فَتَرَاسَلْنَا حِيْناً ، ثُمَّ انْقَطَعَتْ عَنِّي كُتُبُهُ ، فَرَابَنِي مِنْ أَمْرِهِ مَا رَابَنِي ، ثُمَّ رَجَعْتُ ، فَجَعَلْتُ أَكْبَرَ هَمِّي أَنْ أَرَاهُ. فَطَلَبْتُهُ فِي جَمِيعِ الْمَوَاطِنِ الَّتِي كُنْتُ أَلْقَاهُ فِيْهَا فَلَمْ أَجِدْهُ ، فَذَهَبْتُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَحَدَّثَنِي جِيْرَانُهُ أَنَّهُ هَجَرَهُ مِنْ عَهْدٍ بَعِيْدٍ ، وَأَنَّهُمْ لا يَعْرِفُونَ أَيْنَ مَصِيْرُهُ. فَوَقَفْتُ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالرَّجَاءِ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَانِ ، يُغَالِبُ أَوَّلُهُمَا ثَانِيْهُمَا حَتَّى غَلَبَهُ ، فَأَيْقَنْتُ أَنِّي قَدْ فَقَدْتُ الرَّجُلَ ، وَأَنِّي لَنْ أَجِدَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلَيْهِ سَبِيلاً.

هُنَالِكَ ذَرَفْتُ مِنَ الْوَجْدِ دُمُوْعاً لا يَذْرِفُهَا إِلا مَنْ قَلَّ نَصِيْبُهُ مِنَ الأَصْدِقَاءِ ، وَأَقْفَرَ رَبْعُهُ مِنَ الأَوْفِيَاءِ ، وَأَصْبَحَ غَرَضاً مِنَ أَغْرَاضِ الأَيَّامِ ، لا تُخْطِئُهُ سِهَامُهَا ، وَلا تُغِبُّهُ آلامُهَا.

بَيْنَا أَنَا عَائِدٌ إِلَى مَنْزِلِي فِيْ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي السّرَارِ ، إِذْ دَفَعَنِي الْجَهْلُ بِالطَّرِيْقِ فِيْ هَذَا الظَّلامِ الْمُدْلَهِمِّ فِيْ زقَاقٍ مُوْحِشٍ مَهْجُورٍ يُخَيَّلُ لِلنَّاظِرِ إِلَيْهِ فِيْ مِثْلِ تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي مَرَرْتُ فِيْهَا أَنَّهُ مَسْكَنُ الْجَانِّ ، أَوْ مَأْوَى الْغِيْلانِ ، فَشَعَرْتُ كَأَنِّيْ أَخُوْضُ بَحْراً أَسْوَدَ ، يَزْخُرُ بَيْنَ جَبَلَيْنِ شَامِخَيْنِ ، وَكَأَنَّ أَمْوَاجَهُ تُقْبِلُ بِيْ وَتُدْبِرُ ، وَتَرْتَفِعُ وَتَنْخَفِضُ ، فَمَا تَوَسَّطْتُ لُجَّتَهُ ، حَتَّى سَمِعْتُ فِيْ مَنْزِلٍ مِنْ تِلْكَ الْمَنَازِلِ الْمَهْجُوْرَةِ أَنَّةً تَتَرَدَّدُ فِيْ جَوْفِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ تَلَتْهَا أُخْتُهَا ثُمَّ أَخَوَاتُهَا ، فَأَثَّرَ فِيْ نَفْسِيْ مَسْمَعُهَا تَأْثِيْراً شَدِيْداً ، وَقُلْتُ : يَا لَلْعَجَبِ ! كُمْ يَكْتُمُ هَذَا اللَّيْلُ فِيْ صَدْرِهِ مِنْ أَسْرَارِ الْبَائِسِيْنَ ، وَخَفَايَا الْمَحْزُوْنِيْنَ

وَكُنْتُ قَدْ عَاهَدْتُ اللهَ قَبْلَ الْيَوْمِ أَلا أَرَى مَحْزُوْناً ، حَتَّى أَقِفَ أَمَامَهُ وِقْفَةَ الْمُسَاعِدِ إِنِ اسْتَطَعْتُ ، أَوِ الْبَاكِيْ إِنْ عَجِزْتُ .

فَتَلَمَّسْتُ الطَّرِيْقَ إِلَى ذَلِكَ الْمَنْزِلِ حَتَّى بَلَغْتُهُ ، فَطَرَقْتُ الْبَابَ طَرْقاً خَفِيْفاً ، فَلَمْ يُفْتَحْ ، فَطَرَقْتُهُ أُخْرَى طَرْقاً شَدِيْداً ، فَفَتَحَتْ لِيْ فَتَاةٌ صَغِيْرَةٌ لَمْ تَكَدْ تَسْلَخُ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِهَا ، فَتَأَمَّلْتُهَا عَلَى ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ

الضَّئِيْلِ الَّذِيْ كَانَ فِيْ يَدِهَا ، فَإِذَا هِيَ فِيْ ثِيَابِهَا الْمُمَزَّقَةِ ، كَالْبَدْرِ وَرَاءَ الْغُيُوْمِ الْمُتَقَطِّعَةِ ، وَقُلْتُ لَهَا : هَلْ عِنْدَكُمْ مَرِيْضٌ ؟

فَزَفَرَتْ زَفْرَةً كَادَ يَنْقَطِعُ لَهَا نِيَاطُ قَلْبِهَا ، وَقَالَتْ : أَدْرِكْ أَبِيْ ، أَيُّهَا الرَّجُلُ ، فَهُوَ يُعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ؛ ثُمَّ مَشَتْ أَمَامِيْ ، فَتَبِعْتُهَا حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى غُرْفَةٍ ذَاتِ بَابٍ قَصِيْرٍ مُسَنَّمٍ ، فَدَخَلْتُهَا ، فُخُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّيْ قَدِ انْتَقَلْتُ مِنْ عَالَمِ الأَحْيَاءِ إِلَى عَالَمِ الأَمْوَاتِ ، وَأَنَّ الْغُرْفَةَ قَبْرٌ ، وَالْمَرِيْضَ مَيِّتٌ .

فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى صِرْتُ بِجَانِبِهِ ، فَإِذَا قَفَصٌ مِنَ الْعَظْمِ يَتَرَدَّدُ فِيْهِ النَّفَسُ تَرَدُّدَ الْهَوَاءِ فِيْ الْبُرْجِ الْخَشَبِيِّ ، فَوَضَعْتُ يَدِيْ عَلَى جَبِيْنِهِ ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَأَطَالَ النَّظَرَ فِيْ وَجْهِيْ ، ثُمَّ فَتَحَ شَفَتَيْهِ قَلِيْلاً قَلِيْلاً ؛ وَقَالَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ : أَحْمَدُ اللهَ فَقَدْ وَجَدْتُ صَدِيقِيْ .

فَشَعَرْتُ كَأَنَّ قَلْبِيْ يَتَمَشَّى فِيْ صَدْرِيْ جَزَعاً وَهَلَعاً ، وَعَلِمْتُ أَنِّيْ عَثَرْتُ بِضَالَّتِيْ الَّتِيْ كُنْتُ أَنْشُدُهَا ، وَكُنْتُ أَتَمَنَّى أَلا أَعْثَرَ بِهَا ، وَهِيَ فِيْ طَرِيْقِ الْفَنَاءِ ، وَعَلَى بَابِ الْقَضَاءِ ، وَأَلا يُجَدِّدَ لِيْ مَرْآهَا حُزْناً كَانَ فِيْ قَلْبِيْ كَمِيْناً ، وَبَيْنَ أَضَالِعِيْ دَفِيْناً ، فَسَأَلْتُهُ مَا بَالُهُ ؟ وَمَا هَذِهِ الْحَالُ الَّتِيْ صَارَ إِلَيْهَا ؟

وَكَأَنَّ أُنْسَهُ بِيْ أَمَدَّ مِصْبَاحَ حَيَاتِهِ الضَّئِيْلِ بِقَلِيْلٍ مِنَ النُّوْرِ ، فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنَّهُ

يُحِبُّ النُّهُوْضَ ، فَمَدَدْتُ يَدِيْ إِلَيْهِ ، فَاعْتَمَدَ عَلَيْهَا ، حَتَّى اسْتَوَى جَالِساً ، وَأَنْشَأَ يَقُصُّ عَلَيَّ الْقِصَّةَ الآتِيَةَ :

مُنْذُ عَشْرِ سِنِيْنَ كُنْتُ أَسْكُنُ أَنَا وَوَالِدَتِيْ بَيْتاً يَسْكُنُ بِجَانِبِهِ جَارٌ لَنَا مِنْ أَرْبَابِ الثَّرَاءِ وَالنِّعْمَةِ ، وَكَانَ قَصْرُهُ يَضُمُّ بَيْنَ جَنَاحَيْهِ فَتَاةً مَا ضَمَّتِ الْقُصُوْرُ أَجْنِحَتَهَا عَلَى مِثْلِهَا حُسْناً وَبَهَاءً ، وَرَوْنَقاً وَجَمَالاً ، فَأَلَمَّ بِنَفْسِيْ مِنَ الْوَجْدِ بِهَا مَا لَمْ أَسْتَطِعْ مَعَهُ صَبْراً ، فَمَا زِلْتُ بِهَا أُعَالِجُهَا ، فَتَمْتَنِعُ ، وَأَسْتَنْزِلُهَا فَتَعْتَذِرُ ، وَأَتَأَتَّى إِلَى قَلْبِهَا بُكُلِّ الْوَسَائِلِ ، فَلا أَصِلُ إِلَيْهِ حَتَّى عَثَرْتُ بِمَنْفَذِ الْوَعْدِ بِالزَّوَاجِ ، فَانْحَدَرْتُ مِنْهُ إِلَيْهَا ، فَسَكَنَ جِمَاحُهَا ، وَأَسْلَسَ قِيَادُهَا ، فَسَلَبْتُهَا قَلْبَهَا وَشَرَفَهَا فِيْ يَوْمٍ وَاحِدٍ ، وَمَا هِيَ إِلا أَيَّامٌ قَلائِلُ ، حَتَّى عَرَفْتُ أَنَّ جَنِيْناً يَضْطَرِبُ فِيْ أَحْشَائِهَا ، فَأُسْقِطَ فِيْ يَدِيْ ، وَطَفِقْتُ أَرْتَئِيْ بَيْنَ أَنْ أَفِيَ لَهَا بِوَعْدِهَا ، أَوْ أَقْطَعَ حَبْلَ وُدِّهَا ، فَآثَرْتُ أُخْرَاهُمَا عَلَى أُوْلاهُمَا ، وَهَجَرْتُ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ الَّذِيْ كُنْتَ تَزُوْرُنِيْ فِيْهِ ، وَلَمْ أَعُدْ أَعْلَمُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهَا شَيْئاً .

مَرَّتْ عَلَى تِلْكَ الْحَادِثَةِ أَعْوَامٌ طِوَالٌ ، وَفِيْ ذَاتِ يَوْمٍ جَاءَنِيْ مِنْهَا مَعَ الْبَرِيْدِ هَذَا الْكِتَابُ ، وَمَدَّ يَدَهُ تَحْتَ وِسَادَتِهِ وَأَخْرَجَ كِتَاباً بَالِياً مُصْفَرّاً ، فَقَرَأْتُ فِيْهِ مَا يَأْتِيْ :

لَوْ كَانَ بِيْ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكَ ، لأُجَدِّدَ عَهْداً دَارِساً ، أَوْ وُدّاً قَدِيْماً ، مَا "